الفصل الثانى

الغثيان والخلاص بالفن

... وإذن فقد كان سارتر يعانى إبان كتابته للغثيان نفس ما كان يعانيه بطل الغثيان « انطوان روكنتين » .

كان يعانى القلق . الإحساس بالتفاهة . الأهداف السرابية . إظلام الحياة من حوله ، ونضوبها . جفاف حياته نفسها . الإغراق فى الظلام . الوحدة . الشقاء . الضمير وعذابه . ورهافة الإحساس بهذا كله حتى المرض ...

... وينشر سارتر بعد ذلك بخمس سنين مسرحية « الذباب Les Mouches » ويضمها فى كتاب واحد مع قصته الغثيان . ولحكمة يضمهما سارتر معا . لقد كان بطل الذباب الإغريقى « أوريست » هو سارتر نفسه إبان الاحتلال النازى لباريس ، عام ١٩٤٣ .

ويعرف أوريست الحرية ، ويكتشف حريته هو — هذه الحرية الكاملة التامة — ويعرف المسئولية ، ويكتشف مسئوليته هو — مسئوليته تجاه اختيار أى أنماط الحياة

لنفسه ــ ومسئوليته تجاه الآخرين، الذين سيحتكون بهذا النمط، وقد يتخذونه مثلا يحتذونه . فهو عندما يختار يعلى من قيمة ما يختار على حساب القيم الأخرى ، فهو مشرع ، وقيمه التى يعليها ، هى القيم التى يود أن تعلو على غيرها فى المجتمع ، والتي يريد من الآخرين أن يطمحوا ويسعوا إليها .

وعند ما يعلن أوريست لجوبيتر ، أنه سيطلع شعب آرجوس على سره ، وسيكاشفهم بحريتهم ، وسيزعق فيهم بأنهم أحرار ، يزوّر جوبيتر قائلا :

لو كشفت لهم حريتهم ، فإنك سوف تحسهم الوحدة والانعزال والعار . ستكشف لهم بشاعة وجودهم ، وتذيقهم طعمه الذي لا طعم له ، وعندئذ يدركون أن وجودهم قد أعطى لهم لا لسبب ولا لهدف

ويضحك أوريست هازئاً من سذاجة كبير الآلهة . إن هذا هو هدفه ــ أن يعرفوا « أن الحياة الإنسانية لا تبدأ إلا عند الطرف الآخر من اليأس » .

هذا هو هدف الذباب .

وهو نفسه ما توخاه عند كتابته للغثيان ، فالغثيان محاولة لعرض كآبة الحياة . وإذا كان أوريست يقول لشعبه ، إن

الحياة بشعة ، والوجود بلا هدف . فروكينتين يعيش هذه البشاعة واللاهدفية ، ومن خلال تجربته هو ، وممارسته الحياة ، يحكم روكنتين على الإنسانية كلها ، بأنها إما مخدوعة بلا أمل ، أو عمياء عمى متعمداً . ولأنه يعرك الحياة ، ويحتك بشكلها الذى لاشكل له ، ويتذوق طعمها الذى لاطعم له فإن وجوده فيها يعطيه إحساساً بالمرض ... بالغثيان ! !

فمن هو انطوان روكنتين ؟

هو سارتر نفسه ، وهو المفكر الفرنسى التائه ، الذى يعيش فى الريف الفرنسى ، فروكنتين يعيش فى مدينة بوفيل ، إحدى المدن الإقليمية ، بلا صديق ، ولا أسرة ، ولاعمل ، إلا القراءة .

وهو لا يقرأ شيئاً معيناً ، ولكنه يقرأ ما تقع عليه يده ويأتى عفواً إليه ، ثم يخيل إليه أنه يستطيع أن يكتب تاريخاً لحياة مسيو دى روليبون ، أحد المغامرين الذى عاشوا فى القرن الثامن عشر .

ولقد كانت حياة روكنتين قبل استقراره فى بوفيل ، حياة حافلة بالأسفار ، زار خلالها الشرق الأقصى ، والأوسط ، وشمال إفريقيا ، كما ارتحل خلالها إلى الروسيا ، ليسرق بعض مذكرات مسيو روليبون ، الموجودة فى مكتبة موسكو .

ويدخل روكنتين هذه التجارب كلها ليخرج منها بنتيجة مذهلة .

لقد كان فى الهند الصينية ، وكان ينظر إلى تمثال من التماثيل الدينية الكثيرة ، الحافل بها هذا البلد . وفجأة أحس بالامتلاء ، وكأنه قد صار كرة منفوخة . وأحس بجسده كما لو كان شيئاً غريبا عنه . كانت أعصاب يديه تصطدم بمعالم جسده ، وكأنها تصطدم بحدود منضدة أو كرسى مثلا . وشعر أنه قد صار ولا اهتمام لديه بما قد يحدث له ، فهو شيء لا أهمية له أبداً .

ويتأمل روكنتين هذه الحالة الغريبة التى ألمت به ، ويخرج منها ، ويعود إلى حالته الطبيعية مرة أخرى ، ولكنه يظل يفكر فى هذه الحادثة الطارئة :

لقد كانت تجربة مباشرة ، ولكنه لا يستطيع تحديدها .. كانت تجربة غير محددة المعالم ، والتفكير فيها تفكير لا يمكن أن يحتويها بشكل منظم .

ومن ثم يستنتج بأن الاستماع إلى مقطوعة موسيقية ، أو قراءة أثر فنى ، لا يمكن أن يحدث فى النفس إحساساً متكاملا ما دمنا نحيا فى التجربة . فممارسة التجربة ، والحياة داخلها لا يمكن أن يكون له معنى أبداً . ونحن لا نعطيها المعنى

إلا بعد الانتهاء من التجربة ، واجترارها فى لحظة تفكير .

ويتجول روكنتين على شاطىء البحر ، ويتأمل الصبية وهم يلعبون ويمرحون ، وينحنى ليلتقط حصى يلقى بها فى البحر ، ولكنه يجد أنه لا يستطيع التقاط الحصى ، فقد أصاب أصابعه نوع من « غيشان الأيدى » ، وتتكرر الحادثة ، عند ما يحاول مرة أخرى ، وهو فى المكتبة العامة ، تناول فرخ ورق ، فيجد أنه من المستحيل عليه أن يفعل ذلك . إن الأشياء قد اكتسبت حياة مستقلة بنفسها ، وصار من المستحيل عليه أن يلمسها ، كما لو كانت وحوشاً صغيرة .

وتطوى الأحداث بعضها بعضاً فى الرواية ، وتتبين أن هذا الإحساس بحياة الأشياء ، لم يقتصر على الأشياء الخارجة عنه وحدها ، بل صار كذلك لوجوده نفسه . ويكف روكنتين عن كتابة حياة روليبون ، والسبب ، أنه لم يعد يستطيع أن يبعث ماضى نفسه متكاملا متصلا ، ولذلك رأى أنه لا يستطيع بالتبعية أن يفهم ماضى شخص آخر .

ويجلس يفكر — ويزداد إحساسه بجسمه ، وإحساسه بوجوده ، ويقول : « آه إننى موجود . وإننى لأحس إحساسا جميلا وبطيئا يسرى فى كيانى ، وقد امتلأ فى بماء خفيف ،

زبدى ، أبتلعه ، فينزلق خفيفاً على زورى ، وليمتلىء فى بغيره ، وتستمر هذه البركة الصغيرة ، من الماء الناعم الأبيض تدغدغ لسانى .

وهذ البركة هى أنا — إنها كلسانى وزورى ، جزء منى .

ويتبين لروكنتين أن هـذا الوجود سيظل موجوداً ، ومصاحباً له ، لن يستطيع منه فكاكا .

« حيثما أضع يدى ستستمر فى الوجود ، وسأستمر أنا كذلك فى الإحساس بوجودها . ان أستطيع التخلص منها ، أو التخلص من جسدى ، أو التخلص من الدفء الرطب ، الذى يوسخ قميصى أو تخليص نفسى من هذا الدهن الدافىء ، الذى يتحرك فى كسل ، كما لو كانت ملعقة تقلبه — هذا الدهن الدافىء من الأحاسيس ، التى تسير داخلى ، والتى تذهب وتجىء ، والتى تبدأ فى جانبي ، وتصعد حتى كوع ذراعى ، أو التى تجتر نفسها اجتراراً هادئاً من صباح كل يوم حتى مسائه » .

وهو إذ يكتشف غثيان وجوده الذى لا فكاك منه ، يكتشف أيضاً أن الأشياء توجد ، رغماً عن نفسها . ووجودها وجود هلامى غير ذى شكل — وجود عار بشع ، وعريه منفر مخيف . جرد هذه الأشياء ، التى اعتدت عليها ،

من وظائفها التى ألفتها لها كل يوم ، خلال سنين طويلة من العادة والاستعمال ، وستجد أن هذه الأشياء لا معنى لوجودها ، بل إنها لم تعد توجد أصلا .

إذن فقد كان هذا هو غثيان روكنتين . وكانت هذه نتيجة إصابته بهذا الغثيان :

أن العالم تافه ، لأنه لا سبب لوجوده ، ولا يمكن أن يوجد العالم إلا ليمجد الله وليعلن عظمته .

والإنسان بلا قدر ، وهو لا يتميز بميزات معينة عن غيره ، فهو أليس مركز الكون كما يقول الدينيون ، أو ظل الله فى الأرض .

ولن ينقذ الإنسان من تفاهة وجوده تمتعه بالعقل الراجح ، واختراعه المفيد والمذهل كل يوم .

وهذه التفاهة التى تسم الوجود ، ليست محصلة فكرية ، ولكنها تجربة فيزيقية ، فهى ما يحسه عند ما يتأمل مقعد فى ترام ، أو جذع شجرة . وعندئذ يحس روكنتين بالقىء . لقد أمرضه هذا الإحساس المرضى ، هو الذى كشف له تفاهة الوجود .

وهكذا يصبح الغثيان نعمة ، لأنه يتيح لنا فرصة الغوص

إلى حقيقة الحياة ، ولا نجد مهرباً واحداً من الغثيان إلا من خلال ... من خلال ماذا ؟ ؟ .

لقد كان روكنتين فى يوم من الأيام فى مقهى يحب التردد عليه ، لأنه كان على صلة بصاحبته ، وكان هذا اليوم كغيره من الأيام ، ولكنه أخذ ينظر أكمام الجرسونة المطرزة ، ولون التطريز ، وأخذت رائحة المقهى ، واللبن ، والقهوة ، والسكر ، تقوى ، ويزداد إحساسه بها ، وتفاجئه نوبة من نوبات الغثيان .

وتعجب مادلين لحاله . وتظنه متوعك المزاج . وتذكر أنه يحب سماع إسطوانة جاز أمريكية ، إسمها Some Of These Days ، فتديرها له . وسرعان ما تتركه النوبة ، ويعود روكنتين إلى حالته الطبيعية من جديد . ويزداد إحساس روكنتين بالاسطوانة ، وفى نهاية القصة ، عندما يقرر مغادرة بوفيل ، يستمع إليها من جديد ، وعندئذ يشرق عليه الحل الذى كان يلتمسه ، والخلاص الذى سعى إليه .

لقد كان فى يوم من الأيام ، قد قرر أن يستأنف حياة التجول ، كحل ، ليتخلص من هذه الرقابة التى أيأست حياته وأمرضتها ، ولكنه أدرك أن الترحال والتجول ،

لن يكون فيهما الانسجام والهارمونية ، الذى لقطعة موسيقية .

لن تنتظم حياته فى الترحال ، انتظام الأنغام فى المقطوعة الموسيقية . إن الخلاص الوحيد ليس إلا بالفن . لقد أنقذته موسيقى الجاز ، ولن ينقذ حياته سوى الفن . بالفن وحده يكون الخلاص ، وهو لن يحس الخلاص ، إلا إذا توفر على كتابة شىء جميل ، يتسم بالهارمونية ، الذى تتسم به الموسيقى .

ولقد كان روكنتين يعجب دائما بالزوايا الحادة ، التي تتصف بها الأحجار المنجمية . كانت هذه الحدية التى بها ، تعطيه شعوراً بالراحة . فلو أمكنه أن يكتب شيئاً فيه هارمونية الموسيقى ، وحدية الأحجار المنجمية ، وصلابة الصلب ، فسيحس بالسعادة عند ما يتكامل عمل كهذا أمامه ، وسيشعر وقتها ، أنه قد رضى عن نفسه ، ورضى بوجوده ، وتقبله تقبلا حسنا .

والقصة بهذه النهاية تبدو وردية النظرة ، ولكنها فى الحقيقة موغلة فى التشاؤم ، برغم الخلاص الذى يعثر عليه . فروكنتين هنا ، لا يجد الخلاص فى العلاقات الاجتماعية ، وفى الاندماج والمشاركة فى السياسة ، أو فى أى عمل اجتماعى ، ولكنه يجده فى الفن — وفى فن

الكتابة بالذات — فن اجترار التجربة الشخصية ، واختيار عناصرها الحية ، وصياغتها فى صورة فنية .

ونحن نحس بسخرية سارتر من العلاقات الاجتماعية ، فى شكل تجربة روكنتين مع عشيقته السابقة آنى . فهو عندما يلقاها بعد فترة طويلة من الفراق ، ويتحدثان ، يجد أنهما قد صادفا تجربة متماثلة ، ومع ذلك ، ترفض آنى الاعتراف بتماثل تجربتيهما . فلقد كانت آنى تسعى فى تجاربها أن تحقق لنفسها ، لحظات متكاملة من السعادة ، تجرب فيها عواطف ، ترشفها رشفاً حتى الثمالة ، وتتوه فى كثافتها ، وهى فى النهاية ، تتكشف أنها كما لو كانت شيئاً هلامياً ، يتفلطح ويمتد باستمرار ، بلا حدود . ويصف روكنتين مثل هذا الوجود ، بأنه وجود تافه ، لا معنى له . ولكنها تختلف معه ، وترفض فكرته ، فروكنتين يخلص من تجربته ، بأن كل تجربة وفعل عبث ، بينما تجد آنى أن التجربة نفسها ، هى الهدف ، وأنها لا تبغى هدفا خارج التجربة . هو يريد أن يجد للتجربة معنى ، وهى لا تبحث إلا عن التجربة وحدها هو يريد التجربة من داخلها وخارجها معاً ، وهى لا تريدها إلا من الداخل وحده . ويصمت روكنتين . من العبث أن يحاجيها أكثر من ذلك ،

لأنه من العبث أن ينقل لها تجربته ، فالتجارب الحقيقية لا تنقل، والتجارب الحقيقية دائما تجارب مليئة . ورائد التجربة الحية الوجودية لا بد أن يرتادها وحده ، فالوحده هى طريق التجربة الوجودية .

ولقد رأينا كيف بدأ روكنتين رجل فعل ، ثم صار رجل فكر . وكيف أحس وهو فى هذه المرحلة الثانية ، بتفاهة حياته وبالغثيان ، ثم تطوره إلى حد اكتشاف نفسه ، واستكناه معنى وجوده .

فالقصة بذلك وثيقة يدين بها سارتر ، الذين يسحبون أنفسهم من عالم الفعل ، ويقنعون بالحياة داخل نطاق الكتب وحدها فروكنتين ، عندما نلقاه فى أول الكتاب ، يحاول أن يكتب كتابا عن حياة مسيو دى روليبون ، نجده إنسانا بلا قيمة جماعية ، يحاول أن يؤكد فرديته ، ويتأمل ما تنتهى إليه الكتب التى يقرأها من أفكار . إنه يعيش فى عالم الفكر ، وحده ، وهنا الخطورة .

والقصة تدين عالم الفكر ، لأنه يضلل رواده ، وليس من العجيب أن نجد سارتر فى هذه الحقبة من تاريخه ، لا يحفل بالسياسة ، ولا بما يجرى فى المجتمع الفرنسى من أحداث ،

وإنما كان كل همه أن يحصل من المعرفة أقصى ما يستطيع ، ولكنه عندما يقترب من نهاية القصة ، يدرك عبث عالم الفكر ، ويحاول أن يقدم للناس عملا فنيا ، يجعلهم يحسون الخجل من وجودهم ، تماما كما فعل أوريست ، عندما أعلن أنه سيبشر شعب آرجوس بالحرية ، التي تحسهم اليأس . وعندها تبدأ حياتهم الحقيقية .

وهذه الأفكار كلها : الظاهراتية ، والتأمل الفكرى البحت ، وعجز اللغة عن التعبير عن الحقيقة — تملأ كتبه الفلسفية الأولى :

الخيال (١٩٣٦) ، مخطط لنظرية فى العواطف (١٩٣٨) ، والوجود والعدم (١٩٤٣) .

وأول مانجده من تشابه بين قصته الغثيان ، وبين هذه الأعمال الفلسفية ، هو تشابه اللغة ، والصور المستخدمة فى أى منها . وهو يتحدث قرب نهاية كتابه « التخيل » عن الهروب من الواقع ، بالاستماع إلى سيمفونية بيتهوفن السابعة . ونحن عندما ننتهى من سماع الموسيقى — أو عندما ننتهى من أى عمل فنى — نصحو فجأة ، من عالم التخيل إلى عالم الواقع الذى نعيش فيه . وفى هذا التحول السريع يصاب الإنسان بالغثيان .

فالغثيان صفة لاصقة فى وعينا بالواقع . والغثيان ليس حلية روائية ، يخترعها الكاتب ، ليبرز روايته ، ولكنها تجربة إنسانية ، عاناها سارتر نفسه ، عند ما بدأ يناقش وجوده .

« إن الغثيان إحساس غبى لا مهرب منه بالمرض » .

وهو « يكشف دائما جسدى لوعيى » .

وهو فى كتابه « الوجود والعدم » ينسب صفة الغثيان للغير ، ويقول بأن الغير يحيا وجوده فى غثيان — وبمعنى آخر ، كل الناس يحسون بالمرض إحساس روكنتين ، دون أن يدركوا هم أنفسهم ذلك .

وتتردد فكرة الغثيان بعد ذلك فى كتبه كلها ، حتى إننى لأميل إلى الاعتقاد ، بأن قصته الغثيان ، هى الأساس الفلسفى الذى بنى عليه سارتر فلسفته ، التى ضمنها كتبه بعد ذلك ، والتى تناول جزءاً أو أجزاء منها ، فى أى من رواياته ، أو قصصه القصيرة ، بعد ذلك .

وهو فى مقال له عن « چان جيرودو » يقول مثلا :

— إننا لكى ننفذ إلى عالم جيرودو ، الذى تعيش فيه أشكال أرسططالية ، يجب أن نتناسى تجربة واقعنا — هذه العجينة الطرية غير الثابتة الشكل ، والتى تمتد إلى آماد لم يكن أصلها

هنا ــ هذا العالم بلا مستقبل ، حيث كل شيء مصنوع من الصدفة ، وحيث يتسلل الحاضر كاللص فى الليل .

ويعود إلى نفس الفكرة فى بحثه عن بودلير .

وحتى فكرة الخلاص بالاستماع إلى موسيقى الجاز ، لأن فى الجاز معدنية وصلابة ، ليست فى الواقع الآنى الهلامى ، هى مايحببه فى الاستماع إلى الجاز الأمريكى .

والغثيان تعبر بذلك عن رأى سارتر فى التجربة ، بما تقدمه من صور وأفكار . والقصة حافلة بالسخرية ، فهى مليئة بالصور الساخرة من الأدب الواقعى ، كصورة روكنتين فى المطعم وهو يقرأ « ايوجينى جراندية » وينصت إلى حديث من يأكلون على المنضدة المجاورة ، فطرافة حديثهم ، وغرابة النكات ، والنقلات السريعة ، تحيل بينه وبين الاستمرار فى قراءة الحوار السهل المنظم فى الرواية التى يقرأها . فالأدب الواقعى غير قادر على التعبير عن الحياة .

وتجربة أخرى يحكيها سارتر فى الغثيان ، هى تجربة الرجل المثقف ثقافة ذاتية ، فهذا الرجل يحب القراءة ، وقد اعتمد على نفسه فى تحصيل المعرفة ، وغرق بين كتب المكتبة العامة . وهدف سارتر من تقديم هذا الرجل واضح ، فالرجل من هذا

الطراز المسمى « هيوماني » يعيش للكتب خالصاً . لا يقبل أية فكرة ما لم يكن لها أصل فى الكتب ، وينفر من أية فكرة لم يناقشها غيره فى الكتب .

وعندما يقدمه لنا سارتر ، يقول بأنه قد خصص سبع سنين من حياته للانتهاء من قراءة جميع الكتب التي فى المكتبة ، بترتيبها الأبجدى ، مبتدئا بحرف الألف ، ومنتهياً بحرف الياء .

ويحكم سارتر من خلال الرجل على الحركة الهيومانية بالفشل ، لأنها حركة تستوعب كل شيء ، إلا وحدة الإنسان وسطحيته . ورجل الهيومانية هنا ، لا يدخل فى تجارب مباشرة مع أفراد الناس ، ولكنه يحب الإنسانية ، من خلال قراءاته ، ويحكم عليها ككل عام ، بالنبالة والجمال .

وهو لا يصطدم بالواقع إلا قرب النهاية ، عندما يدرك ، لأول مرة ، أنه وحيد ، كغيره من الناس .

ويقدم سارتر حادثة أخرى يدين بها « الهيومانية » كمذهب إنسانى ، فرجل الهيومانية أثناء قراءاته فى المكتبة العامة ، يرضيه أحياناً ، أن يحتك أو يلامس ، غلاما جميلا من المترددين على الدار ، ويضبطه أمين المكتبة ، ويعنفه بقسوة ، ويتأمل ركنتين الحادثة مفزوعا ، ويعرض مساعدته على رجل

الهيومانية ، ولكن الأخير يرفضها وينطلق مرة أخرى داخل عزلته ، متحوصلا .

وقد نعجب للعلاقة بين الهيومانية والشذوذ الجنسى . وقد لا نجد علاقة بين الاثنين ، ولكن هدف سارتر أن يدين الهيومانية ، فهو يقول ، إنها تتحدث عن نبل وجمال الإنسانية ، ولكنها مع ذلك لا ترى فى الإنسان ، كفرد ، إلا مبولة جنسية تافهة .

وليست الهيومانية وحدها هى التى يهاجمها سارتر فى الغثيان ، فهجومه على البورجوازية لا يقل عنفا . وهو عند ما يصف مجتمع « بوفيل » ، يصفه بالنفاق . ووصفه له لا يتم بصورة مباشرة ، فسارتر فنان . ولكنه يقدم مشهداً ، يجرى فى متحف « بوفيل » للفنون ، حيث تعرض لوحات لكبار الشخصيات ، يصفهم سارتر بأنهم خنازير ، وكل خنزير منهم يجمع فى نفسه كل فضائل البورجوازيه ، فدكتور « باروتين » ينفق على الطلبة ، ويخصص جزءا من ثروته على الإنفاق منها على مجموعة من فقرائهم يدرسون الطب . وأخوه « جان » يقضى حياته فى خدمة القانون . أما « باكوم » فقد كان إبناً مطيعاً ، ثم تزوج فصار زوجاً وأباً مثالياً ، وتقلد سلك الوظائف فخدمها خير خدمة . وآخرون غيرهم كثيرون .

ولكن . . هل كانت دوافع هؤلاء الناس ، من وراء أتباع هذا الصراط الأخلاقى المستقيم ، دوافع سليمة ؟ .

كلا . . فكل منهم له أيضاً دوافعه الخفية ، كما لا يبدو ظاهرياً . فمثلا دكتور باروتين ما كان ليساعد البورجوازية ، إلا ليمكنها ذهنيا ، ويسلحها علميا ، كى تتولى المنصب القيادى فى المجتمع . أما باكوم فقد أدى واجبه ، لأنه كان يرى أن من حقه أن يفعل مافعل . وكان جان محاميا مخلصا لأنه كان يخلص فى الحقيقة لمصالح طبقته ، ويجد فى المحاماة طريقة للدفاع بها عن تلك المصالح... الخ . وإذن فكلهم بورجوازيون يفصحون عن أهداف بورجوازية .

وهكذا نجد أن سارتر عندما يقدم هذا المشهد ، إنما كان يهدف إلى بيان ظاهرة سياسية ، وجلاء حقيقة فلسفية . وهذا المشهد يكتبه سارتر بلغة الفلسفة ، فى مقاله المعنون « المادية والثورة » والمنشور فى مجلة العصور الحديثة ، سنة ١٩٤٦ ، حينما يقارن بين اتجاه الرجل الثورى — مثل روكنتين أو مسيو دى روليبون — وبين اتجاه البورجوازى .

فالثورى إنسان يرى نفسه بلا حقوق ، بينما البورجوازى يؤمن بأنه مصدر كل الحقوق ، وأن مكانه هذا ، كشرع وصاحب حق ، قد جاءه من الله مباشرة .

فكل فرد من أفراد الطبقة الحاكمة صاحب حق إلهى ، وهو بميلاده بين طبقة من الحاكمين يعتقد منذ بلوغه مرحلة الرجولة ، بأنه قد ولد ليحكم ، فهناك وظيفة اجتماعية معينة تنتظره مستقبلا ، وتخلق منه حقيقة متيافيزيقية . فهو موجود ليخلف أقرانه فى الحكم عند ما تحين الظروف ، وهو موجود لأنه له حق الوجود . وهذه الطبيعة المقدسة التى يضفيها البورجوازى على البورجوازى ، هى ما تتمثل فى الاحتفالات والمظاهر الاجتماعية ، المسماة بالأصول المرعية ، أو الآداب العامة . فكل هذه الآداب ، ماهى إلا وثائق اعتراف من البورجوازى للبورجوازى ، وفى اتباعها اتباع لطقوس للديانة الواحدة ، التى يدينون بها جميعا لبعضهم البعض . هذه الآداب تتمثل فى تعزية بعضهم للبعض فى الملمات ، وتبادل الزيارات والابتسامات والانحناءات والبطاقات والدعوات . ويتم كل ذلك فى إطار مايسمونه بالكرامة الإنسانية .

وهذه الفكرة التى يفصلها سارتر هنا ، يعود إليها كثيراً ، مؤكداً أن البورجوازية تكثر من استخدامها « لفكرة حقها الإلهى » لكى تخفى بها حقيقة وجودها المزيف . وروكنتين يقول :

« إنها أكذوبة ، لأنه ما من أحد وله أية حقوق

قطعية . إننا كلنا نعيش فى زيف ، ووجودنا وجود حزين غامض سطحى » .

ويعود سارتر مرة أخرى ، فيربط بين الثورى والبروليتارى . فالثوريون والبروليتاريا كلاهما يعى ثانوية أو عرضية وجوده . وهو يقول فى كتابه « جانية الكوميدى والشهيد » ، عن الكاتب الوجودى جان جانيه ، الذى كان لصا ، وصار من كبار أدباء فرنسا — يقول سارتر فى هذا الكتاب ، إن ابن العامل :

« يحس فى ثنايا لحمه بعرضية الأعشاب . أى أنه يحس بأن وجوده وقتى ، وهو قد نشأ كما تنشأ الأعشاب ، وسيعيش حياتها ، ويموت موتها » .

ولكن سارتر ، مع ذلك ، ينفر من الشيوعية ، وهو يكمل صورته عن الهيومانى ، بأن يجعله ينضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى ، بعد انفصال الحزب الاشتراكى عن جماعة الشيوعيين — هذا الانفصال الذى تم فى سبتمبر سنة ١٩٢١ فى مؤتمر تور — وليس معنى ذلك ، أن سارتر يتجاوب مع الشيوعية ، فهو يدرج كتابهم ضمن الفئة التى ينتمى إليها الهيومانى ، فهم أعداء الإنسان كفرد .

ونلاحظ أن روكنتين ليست له آمال سياسية ، فهو يحتقر البورجوازية ، ويعتقد أنه قد كشف ادعاءها ونفاقها . وما يقدمه روكنتين من حل ، ليس حلا سياسيا ، ولكنه حل جمالى لمشكلة الوجود ، فهو عندما يرى أن خلاصة لم يتم إلا بالفن يحل المشكلة حلا جماليا ، وهنا تفاجئنا مشكلة أخرى جديدة . فالمقطوعة الموسيقية التى تخلصه من غثيانه ، والتى توحى له بالخلاص الفنى — هذه المقطوعة وهى « Some Of These Days » من تأليف وعزف اثنين من الموسيقيين ، أحدهما يهودى والآخرى زنجية . والاثنان منبوذان من البورجوازية . ولكن الغثيان مع ذلك لا تعطينا الإحساس ، عندما ننتهى من قراءتها ، بأن سارتر كان فعلا ينوى أن يرضى روكنتين بهذا الحل الجمالى ذى المسحة السياسية . فالمفروض أن الكتاب يوميات لمن يدعى روكنتين ، والمفروض أن هذه اليوميات قد وجدت بين أوراقه . وهذا يعطينا الإحساس بأن روكنتين إما قد مات ، أو جن .

ويعتقد نفر من النقاد أن هذه اليوميات ، هى الكتاب الذى كان روكنتين ينوى كتابته للناس ، ليهز به ضميرهم ، ويعرى من خلاله وجودهم ، ويطلعهم على يأسهم ، وفى هذه الحالة يصبح سارتر مقلداً « لمارسيل بروست » وتصبح مقطوعة

« Some Of These Days » تفسير للجملة التى يضمنها «مارسيل بروست» كتابه «فينيتويل سوناتا» والتى أوحت له بقيمة الفن. ويصبح قرار روكنتين بأن يكتب يومياته ، شبيها باكتشاف مارسيل لرسالته التى تدفعه إلى كتابة « البحث عن الزمن الضائع . A La Recherche du temps Pendu.

ولكن هل ينجح سارتر فى تقديم كل هذه الأفكار الفلسفية والسياسية ، من خلال الغثيان ، كما نجح مارسيل بروست ؟

لقد تمثل سارتر موضوعاً معيناً هو الغثيان ، أو المرض الجسمى والنفسى . ومن خلال هذا المرض قدم سارتر أفكاره . وفى الحقيقة أننا عند ما نوازن بين هذه الأفكار ، وبين وسيلة تقديمها ، نجد أن سارتر قد أحسن الاختيار ، فليس هناك أنسب من تقديمها خلال حالة المرض التى ألمت بروكنتين . فاذا كان الوجود تافهاً وسطحياً ، فان أنسب ما يمكن أن ننقل من خلاله هذا المعنى هو المرض . والغثيان حالة مرضية تتسم بالتهويل . والمصاب به يظن أن كل شىء موجود De Trop أى فى حالة ورم . فالتفاهة تفاهة زائدة والسطحية سطحية شديدة ، وهكذا .

ورغم أن سارتر لم يقرأ كافكا إلا متأخرا ، فانه قد تأثر به . وهو يفصح عن هذا التأثر فى تلك الصورة السريالية التى يتحول فيها لسان الرجل الذى يرقبه روكنتين ، إلى حشرة عنكبوتية « تحرك أرجلها وتخربش بها حلقه » . وفى الصورة الأخرى ، التى تنظر فيها الأم إلى نقطة فى وجه طفلها ، إذا بالنقطة تتغير بسرعة ، فتصير عيناً ثالثة . أو عندما يظن روكنتين نفسه قد صار عقرب ماء يفزع الهيومانيين . وبينما نجد هؤلاء ينظرون إلى البحر ، ويحسون بنشوة جماله ، يصفه هو لهم قائلا :

« إنه مظلم وبارد ، ملىء بالوحوش الزاحفة تحت سطحه الرقيق الأزرق — هذا السطح الذى يخدع الناس » .

كل هذه المشاهد السريالية ، تزيد من إحساسنا بقتامة الحياة ، وزيف مظهرها ، وعبثها ، ولكن القصة تحفل أيضا بالوصف الواقعى الذى يصور لنا طبيعة الحياة من حولنا ، والذى يلهب فينا الإحساس بعدم التكامل والنقص والخطأ فى تكوينها ... مثلا مشهد الجمهور الواقف على الرصيف أمام دار السينما ظهر أحد أيام الأحد :

« كان هناك أكثر من مائة شخص على طول الحائط الأخضر

ينتظرون فوق الرصيف ، فى شوق ، أن يلفهم الظلام بغلالته الرقيقة ، فيحسوا الراحة ، ويستطيعوا أن يتركوا أنفسهم على سجيتها ، حتى تضىء الشاشة أمامهم ، كما لو كانت حصى بيضاء تبرق تحت ماء البحر ، وتتابع عليها الصور فتتكلم وتحلم بما يريدون أن يحلموا به . أية رغبة عابثة ! إنهم يريدون أن ينسوا ، ولكن هيهات ، فلن يستطيعوا النسيان . كلما انزلقوا فى الحلم ، وكادوا يبلغون ما يريدون ، تصلب شىء ما داخلهم ، وأبى أن يذوب فى صور الشاشة . هذا الشىء هو الخوف من أن يفسد عليهم أحد سهرتهم الجميلة . الخوف من أن يكون يوم الأحد هذا كغيره من أيام الآحاد الأخرى التى انتهت بخيبة الأمل . الخوف من أن يكون الفيلم ساقطا ، أو أن يدخن الجالس إلى جوارهم ، أو يستمر فى البصق بين رجليه ، أو أن يكون الحبيب ، أو الحبيبة ، ثقيلة الدم لا تجد شيئا جميلا لتقوله ، أو أن تعود اليهم ، كما لو كانت عن عمد ، آلام الكلى وأوجاع المصران الغليظ .

وعندئذ تراهم يقطبون ويسهمون . ربما كان فى الفيلم شىء يدفع الناس إلى الزمجرة ، وربما صرخوا وهتفوا وباظت الليلة .

مثل هذا الوصف لا يتقنه إلا سارتر ، فهو قدير على اختيار الأحداث والتفاصيل التى تبعث فى نفس القارىء التقزز

والاشمئزاز ـ مثلما يقول واصفاً أمين المكتبة ، عندما يتوقف بين الحين والحين ، « ليبصق فى منديله ، ثم يبسطه فوق مدفأة المكتبة ، ليجف » .

وهكذا يفلح سارتر فى جعل عالم روكنتين الذى يحيا فيه ، يبدو عالما خالياً من الجمال . فهل كان سارتر يريد أن يقول لنا ، إن هذا العالم الذى نعيش فيه ، عالم خلو من كل ما يحمسنا فى العيش ، ممتلىء بما يزهدنا فى الموت ؟ ولكننا لا نميل إلى أن نجيب بنعم ، فليس من الممكن أن تكون التجربة الضرورية تجربة عامة . وسارتر لو كان يستقى تجربته الفنية ، كما هو فى الواقع ، من تجربته المعيشية ، فليس معنى ذلك أن نفهم أن التجربة الفردية ، يمكن أن تسرى أحكامها على الجميع .

والوجودية تجربة فردية ، ولذلك فنحن لا نجد تجربة باسكال ، تشبه تجربة كيركجورد ، أو سارتر . ولقد انتقد ڤولتير فلسفة باسكال ، ووصفها بأنها تجربة رجل مريض قد زادت عليه العلة حتى اليأس . ونحن يمكننا أن ننتقد تجربة كيركجورد ، أو سارتر ، بنفس المقياس ، فلو كان كيركجورد قد تربى فى كنف أب يعرف الله ، ما كانت له نفس الآراء عن الله ، وإحساسه بالخطيئة ، ومن ثم لكان تغير اتجاهه نحو الحياة . ولو لم يكن سارتر قد مارس الحياة والوجود ، على

أنهما غثيان ، ما انتهت فلسفته تجاههما إلى ما انتهت إليه هنا . ومع ذلك فهناك نقاد يصرون على القول ، بأن سارتر لم يكن يكتب ما يكتب عن تجربة حية ، وإنما كانت كتاباته كتابات أديب فنان يفكر ويتخيل ويكتب .

ومن هؤلاء الناقد « فرانسيس جينسون » الذى اعتمد سارتر كتابه عنه المسمى Sartre Par Lui Méme فجينسون يقول بأن سارتر كان حقيقة ممتلئا ذهنيا بالخيالات المريضة ، ولكن لايمكن أن يكون مريضا ، مادام يعرف ماهية هذه الخيالات ويعيها . وهو إذ يعيها ، فإنما يسيطر عليها ، وإذا سيطر عليها ، فلا يمكن أن تتغلغل فى كتاباته ، بحيث تصبغها بصبغتها ، وتصفها بأنها خيالات مريض .

ويدعى جينسون أن سارتر كان دائما صحيح البدن لايشكو علة a toujours fait bon ménage avec son corps.

وتؤيده فى دعواه « كوليت أودرى » . وهى تفرق بين سارتر المرح الحبوب ، البليغ الذى كتب الغثيان ، وبين روكنتين بطل الغثيان ، المكتئب الذى اعتزل الناس ، وتقوقع فى وحدته . وهى تقول إن سارتر ، أيامها ، كان يسافر بالقطارات ويتسلى بحل الألغاز ، ويرحل فيترك فى نفوس أصدقائه أجمل الذكريات لأبدع النكات والقفشات .

وأنه كان يمارس الألعاب المسلية كالبلياردو والبنج بونج . وأنه كان يتعلم الملاكمة وضرب النار . ولذلك فمن غير المعقول أن يكون روكنتين هو سارتر نفسه .

ولو كان سارتر حقيقة قد كتب قصته دون أساس من تجربته الشخصية ، لاعتبرنا القصة دراسة تشريحية لمرض من الأمراض النفسية الجسمية ، ولما عددنا سارتر فنانا ، وإنما عالم أكاديمى ، يتقن معرفة العلم الذى يكتب عنه ، مع بعض الخيال والتمكن فى اللغة

وهذا ما يحاول « جينسون » و « روبرت كامبل » أن ينتهيا إليه من كتابيهما عن سارتر . ولكننى لا أميل إلى رأيهما ، وأعتقد أن سارتر ككاتب وجودى ، يعيش تجربته ، وهو صادق مع نفسه ، وهو لا يكتب إلا عما يعانيه ويؤرقه فعلا . ولا يعنى ذلك أن سارتر هو روكنتين ولكن روكنتين هو سارتر زائد الفن . .

إنه ناحية من نواحى سارتر ، ووجهة نظر ، قد طورهما ، بحيث صارتا روكنتين . أما الغثيان ، وعدم الرضى ، اللذان يجسمهما روكنتين ، فهما عنصران Leitmotiv فى كل كتابات سارتر تقريبا . وليس كتابه « الوجود والعدم » إلا محصلة لتجربة روكنتين فى الغثيان . فالوجود عرضى ،

والهروب من الغثيان اتجاه عام . وكفاح الإنسان من أجل الخلاص ، كفاح لتحرير نفسه ووجوده تحريراً تاماً ، يمنحه الوعى بتكامله تكاملا إلهياً يعطيه المزيد من الأمل . ولكن شتان بين التحقيق والمحاولة ، فالمحاولة واجبة والتحقيق مستحيل ، ولذا كانت المحاولة عبثا . ولكن ليس معنى ذلك أن نكف عن المحاولة ، فالإنسان رغم عبث الحياة مقدور عليه أن يحاول ويناضل دائما ، وحاله فى ذلك هو حال « سيسوفوس » البطل اليونانى الأسطورى ، الذى يقص « هوميروس » قصته ، والذى قدّر عليه أن يحمل صخرة إلى أعلى الجبل ، حتى إذا وصل بها إلى القمة ، سقطت منه ، فيضطر إلى إعادة إصعادها من جديد ، وهكذا ، حتى الأبد . فكأن عمله عبث باستمرار ، ولا أمل فيه ، وحياته فى هذا العمل حياة لا معنى لها .

ولو تأملنا سبب عقاب سيسوفوس ، لوجدنا أنه قد عوقب لأنه فى رواية ، قد قيد الموت فثار عليه إله العالم السفلى ، وفى رواية أخرى أنه أعطى الماء لسكان « كورنثوس » وأحاط « اسوفوس » بسر اختفاء « أجينا » ابنته ، وكان « زيوس » رب الأرباب قد سباها ، مما استوجب غضب رب الأرباب ، وعقابه له ، بأن ألقى به فى الجحيم .

وفى رواية ثالثة أن سيسوفوس ، طلب من زوجته عند وفاته ، أن تترك جثته فى العراء دون دفن إذا جاءه الموت . وفعل ذلك ليمتحن حبها له . فلما مات نفذت الزوجة الوصية ، فغضب سيسوفوس ، وطلب من « بلوتون » إله العالم السفلى ، إجازة للأرض ، كى يعاقب الزوجة الخائنة ، فلما أذن له ، وعاد للأرض ، وأحس دفء الشمس ، وإشراقة الضوء ، ولذة الماء ، وجمال الحياة والبحر ، رفض العودة إلى العالم السفلى ، فاجتمعت الآلهة للنظر فى مخالفته وثورته ، وأصدرت عليه حكمها هذا الرهيب ، بأن يظل يحمل الصخرة حتى القمة ، لتسقط منه ، ويهبط فيصعدها من جديد .

وما كان لسيسوفوس أن يحاول من جديد فى كل مرة ، لو لم يكن هناك أمل يرغبه فى المحاولة ، ولكنه مع ذلك أمل قلق متوتر يائس ، فيه روعة إبداعية ومظهر إنسانى عام .

والمأساة فى أسطورة سيسوفوس ، هى أنه قد عشق الحياة ، فوجبت عليه اللعنة ، بأن يعمل عملا لا جدوى منه ولا ثمرة فيه ، فياله من ثمن يدفعه الإنسان مقابل لذات الحياة ! .

ولكن المأساة لن تكون مأساة ، إلا لو أحس بها من نزلت ساحته . والألم لن يكون ألما عبقرياً إلا عند حدود معينة . ولقد عوقب سيسوفوس عقابا لم ينزل بأحد ، وتألم

ألماً لم يتألم أحد مثله ، وكان شعوره بمأساته وألمه شعوراً حاداً يبلغ قمة المأساة . فأى شعور هذا الذى يصيب إنسانا عندما يبلغ بصخرته قمة الجبل ، ثم تسقط منه وهو لا يستطيع حيالها شيئا ! ! ويرى جهده وعرقه وحيلته وذكاءه وأمله ، كلها تضيع من بين يديه ، وهو بلا حول وبلا قوة ! ! .

والفارق الوحيد بين روكنتين وبين سيسوفوس ، هو أن روكنتين يجد الخلاص فى الفن ، وسيسوفوس يستمر فى محاولة الحياة ، وإعادة التجربة ، ولو كان فيها تكرار .

وروكنتين عندما يتأمل موسيقى الجاز يتخيل مؤلفها ، وهو قابع يحتر نفسه ويلهب حسه ، ويجدّ وراء سبب لوجوده ، يعثر عليه فى ختام المطاف ، فى هذه المقطوعة الغنائية القصيرة البسيطة . ويحادث روكنتين نفسه :

« لو كان هو قد عثر على سبب وجوده ، فلماذا لا أعثر أنا أيضاً على سبب وجودى ؟ لماذا لا أصنع أنا أنطوان روكنتين سبباً لوجودى ؟ ؟ لماذا لا أعطى معنى لحياتى بأن أخلق شيئا ؟ بأن أخلق بالكتابة ؟ لا يمكن أن أكتب عن حياة إنسان ، وأؤرخ لحياة إنسان ، لأن الكتابة عن حياة فرد ، أو حياة أمة ، هى الكتابة عن شىء وجد فى يوم ما ، وانتهى سبب وجوده » .

« ولا يمكن أن ينفعل الموجود بوجود آخر ، انفعالا يصل به إلى تبرير وجود الموجود الآخر ! ! إذن فلا بد أن أكتب شيئاً .. أن أخلق شيئا .. أن أكتب رواية مثلا لا تاريخ حياة . . أن أصنع أنا حياة أفراد ، وأخلق البيئة ، والشخصيات ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض . . ولن يكون الأمر سهلا بالطبع ، بل سيكون شيئا عسيراً مرهقا . . ولن يمنعنى من أن أوجد أو أحس أنى أوجد . وفى يوم من الأيام سينتهى الكتاب ، وسأخلفه ورائى ، وسيكون نوراً يجلو ماضىّ . . وحينئذ ربما أحسست وقتها ، أنى أستطيع أن أتذكر حياتى دون زهد أو اشمئزاز منها ! ! ! »

... وهكذا تنتهى الغثيان ...

... قصـــة رائعة من كاتب عبقرى ، تحس وأنت تقرأها أنك حيال سيمفونية ، لا يمكن أن تشذ نغمة منها عن بقية الأنغام .

... أو أنك قبل بناء ضخم ، رائع السمت ، من تصميم مهندس يضع الخط لصق الخط ، والفكرة إلى جوار الفكرة . .

. . والسبب أن سارتر فيلسوف قبل أن يكون فنانا . .

والإحساس الذى يداخلنا ونحن نقرأ الغثيان ، هو نفس

إحساس روكنتين وهو يستمع إلى الموسيقى ، ويحس بمكونات نفسه يعاد تنسيقها من جديد ، وذرات عقله يستحثها هذا الإحساس ، فإذا بالفكرة تأتيه هابطة عليه كالوحى . .

ـــ لماذا لا أجد سببا لوجودى ؟ ؟ .

وعندئذ تهتف معه :

ولماذا لا نجد نحن أيضا سببا لوجودنا ؟ ! ! .

ولكن . . .

إن كان سارتر قد وجد الخلاص فى الفن . . وإن كان يدعو إلى أن نبحث عن سبب لوجودنا . . . فليس معنى ذلك أنه قد وصل إلى مرحلة الالتزام . . فبينه وبين الالتزام مازالت هناك سنين . . . والالتزام هو الالتزام السياسى ، الذى كان يدعو إليه . . وعلى ذلك فقصة الغثيان هى قصة وجودية لكاتب وجودى . . وليست قصة اشتراكية ذات مضمون اشتراكى التزامى ! ! ! . . .

* * *